الرحلة ودورها في التدوين التاريخي الجزائري
رحلة أبو راس الناصري نموذجا.

أ. بكاري عبد القادر*

مقدمة: عرف العرب والمسلمين أدب الرحلة منذ القدم، وكانت عنايتهم به عظيمة في سائر العصور، فإذا كانت القرون الأولى من العهد الإسلامي قد عرفت نماذج ذاتية من الرحلات الجغرافية والتاريخية، كرحلة السيرافي(ت 368هــ) بحرا إلى المحيط الهندي في القرن الثالث الهجري، ورحلة البيروني(ت 440هــ) المسماة "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"، والتي تجاوزت الدراسة التاريخية والجغرافية إلى الدراسة الأنثروبولوجية لثقافات المجتمع الهندي، فإن القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي يعد اللبنة الأولى لإنتاج أدب الرحلات، حيث أصبح تيارا موازيا للأدب الجغرافي، يضارعه ويتممه، ويضفي بالغ الفائدة والمتعة على تراث الأدب العربي والإسلامي. ولعل رحلة كل من ابن جبير الأندلسي(ت614هــ)، وابن بطوطة (ت779هــ) مثالا لقمة التطور الأدبي، لما تحملاه من مشاهد لذكريات دقيقة لمظاهر الحياة، من عادات وتقاليد لشعوب البلدان التي ارتحلا اليها(1).

ولأن الرحلات الجزائرية تعددت وجهاتها، واختلفت من حيث المدة والموضوع، ولأن الفترة التي شهدت تدوين أكبر عدد من الرحلات الحجازية خاصة، هي القرون الثلاثة (الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر)، فإنه كلما دار الحديث عن شخصية تاريخية علمية وفكرية جزائرية، ساقتني مخيلتي إلى الحديث عن مجدد القرن الثالث عشر الهجري/القرن الثامن عشر الميلادي، الشيخ أبي راس الناصري الذي يعتبر جزء لا يتجزأ من تاريخ الجزائر الثقافي خلال العهد العثماني، وهو الذي كان على رأس المؤرخين الجزائريين إنتاجا، وإدراكا لأبعاد الدراسة التاريخية، ويعتبر من المكثرين في التأليف، والذي قال عنه أيضا أحد المستشرقين: "إنه من أنشط كتاب المغرب في ذلك الوقت وأحفلهم إنتاجا، وبلغت مجموع تصانيفه في مختلف العلوم مائة وأربعين مصنفا"(2).

ورغم الشهرة الواسعة التي نالها الشيخ أبي راس الناصري داخل الوطن وخارجه، ورغم مواكبته لظروف تميزت بالاضطرابات السياسية والثقافية (الثورات الدينية، الركود الثقافي) خاصة أواخر العهد العثماني، إلا أننا نلاحظ نقصا كبيراً في دراسة الإرث العلمي والثقافي لأبي راس

*أستاذ مساعد أ في التاريخ الحديث والمعاصر- شعبة التاريخ- قسم العلوم الإنسانية- جامعة ابن خلدون- تيارت.

الناصري، والمتوفر من هذه الدراسات نجده يتميز بالاختصار والقلة، وينقصه التحليل العميق، ورغم محاولة أبي القاسم سعد الله- إنصافا- التي تعد اللبنة الأولى للتعريف بهذا العَلَم، وكتابات مؤرخين آخرين على غرار الشيخ المهدي البوعبدلي ويحي بوعزيز رحمهم الله، وناصر الدين سعيدوني مثلا، إلا أنه لم تفرد له دراسة خاصة في مستوى ومكانة الرجل العلمية التي نالها مشرقاً ومغرباً.

ولأجل ذلك، سنحاول في هذا المقال تسليط الضوء على جانب من المؤلفات التاريخية للشيخ أبي راس الناصري، والحق أنه جانب من حياته التي تضمنت رحلاته إلى المشرق العربي في مرحلتين، تفصل بينهما مدة عشرين سنة، بين الرحلة الأولى التي كانت سنة 1205هـ/1791م، ورحلته الثانية سنة 1227هـ/1812م، كما رحل إلى المغرب الأقصى سنة 1211هـ/1797م، وهو ما تضمنه كتابه "فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته"، في الباب الثالث والذي جاء بعنوان- في رحلتي للمشرق والمغرب وغيرهما، ولقاء العلماء الأعلام، وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام-(3). وفي مخطوطه "زهر الشماريخ في علم التاريخ" إشارة إلى رحلته الثانية في العديد من الصفحات، حيث تاقت نفسه إلى أداء فريضة الحج مرة ثانية، لعله يتنفس من الضيق الذي عاناه سنوات على حسب قوله(4).

وقبل الخوض في هذه الدراسة، أود تقديم تفسير ولو تقريبي وبسيط للعنوان الذي اخترته للمقال، والذي حاولت من خلاله ربط التاريخ بالرحلة الخصوصية لأبي راس الناصري، ولأن التاريخ البشري هو تجربة فردية وأيضا جماعية، وهو ما يوضحه عبد الله العروي نقلا عن فون رانكه حين يقول: "إن التاريخ تاريخ لا يعود، وكل عمل له خصوصية ذاتية. لكن هذه الخصوصية لا تنفي وحدة التاريخ الكوني الذي يمثل تجليات الوعي الإنساني، الوعي بأن الإنسان حر بما أنه تاريخي، وتاريخي بما أنه حر"(5).

وقد حرصت على تبيان هذه العلاقة، لما تحمله رحلته من معلومات جمة، تفيد الدارسين والباحثين على السواء في هذا المجال، ففيها ضروب من المعلومات الثقافية والعلمية، خاصة لما يسرد علينا أبو راس الناصري أخباراً عن العلماء والفقهاء الذين زارهم ولقيهم، رابطاً ذلك بمعلومات ذات صلة بتاريخ الأدب، مقتبسا أشعاراً من مختلف العصور، شعراء الأندلس كابن الآبار، وأشعارا من وحيه. ولما كانت الرحلة مجالا واسعا للتعرف على حركية المجتمعات، وأهميتها تكمن في مجال الانفعال الحادث بين الرحالة وبين ما يشاهده، لذلك تراه ينقل لنا تجربة صادقة مفعمة بالإعجاب

والاندهاش. وإذا كان أدب الرحلة يعتبر جزءً من التراث، ولونا من ألوانه، فإن دراسة الرحلة من الناحية المنهجية، تهدف إلى إبراز بعض ملامح وعناصر التراث الشعبي، الذي غالبا ما أغفلته المدونات التاريخية الرسمية(6).

سافر أبو راس كثيراً، والتقى بعلماء مشهورين، فاستقبلوه أحسن استقبال وأجازوه، ولقبوه بالحافظ تارة، وبشيخ الإسلام تارة أخرى، واضعا أمام عينيه قول الحكماء: "لا يكون الرجل عالما حتى يسمع ممن هو أسن منه، وممن هو مثله، وممن هو دونه"، لكن بعض المؤرخين، ومنهم أبو القاسم سعد الله، يذكرون أن رحلاته لم تكن للتحصيل العلمي، بقدر ما كانت للمناظرة والتفاوض حول المسائل العلمية والقضايا الدينية، وأنها غير مهمة(7).

ولنا أن نتساءل كباحثين عن جدوى ومعنى وأهمية المناظرات والمناقشات التي تتم بين العلماء، وهل تخلو من الفائدة العلمية؟

قبل الإجابة على هذا التساؤل وتساؤلات أخرى منها، بماذا تميزت رحلة أبي راس الناصري إلى المشرق العربي خاصة؟ وما هي دوافع رحلة أبي راس الناصري؟ وما خصائصها ؟ وفيما تكمن أهميتها؟ وهل يمكن إدراج رحلته في أدب الرحلات كشكل فني داخلا في الأدب مثلما أصبح عليه في العصر الحديث، أم هي دراسة تاريخية وجغرافية حية كما كان من قبل؟. تجدر بنا الإشارة إلى تعريف مصطلح الرحلة أولا، ثم إلقاء نظرة عن تاريخ الحركة الرحلية عند العرب والمسلمين ثانيا، للعلم أن مجال الرحلات لم يكن ليخص العرب والمسلمين فقط.

تعريف الرحلة: جاءت الرحلة في اللغة بعدة معان منها: السير والضرب في الأرض، فالترحيل والإرحال بمعنى الإشخاص والإزعاج. يقال: رحل الرجل إذا سار، ورجل رحُول أو قوم رُحل أي يرتحلون كثيراً (8).

وجاءت الرحلة بمعنى الانتقال من مكان لآخر: ارتحل البعير رحله: سار فمضى، وارتحل القوم عن المكان: انتقلوا، كترحلوا (9).

والرحال والرحالة اصطلاح يطلق مبالغة على الرجل يخرج إلى بلد آخر أو أكثر، ويقع جمعا، فالرحال صفة مشتقة من الفعل الذي قام به وهو الرحلة (10).

ولقد ربط العرب في لغتهم بين الدواب التي يرحلون عليها، وبين مفهوم الرحلة بصورة عامة، فأخذوا الكلمة من هذا المعنى. "ناقلة رحيلة" أي شديدة، قوية على السير، وجمل رحيل، وبعير ذو

رحلة، ورحلة إذا كان قويا على أن يرحل، وارتحل البعير رحلة، سار فمضى. ثم جرى ذلك في المنطق حتى قيل: ارتحل القوم عن المكان ارتحالا، ورحل عن المكان يرحل[11].

ولما كانت الرحلة ظاهرة قديمة قدم الإنسان، فقد دأب الإنسان منذ أن خلقه الله سبحانه وتعالى على وجه الأرض بحثا عن الرزق- الماء والكلأ- تارة، فنشأ بين ذلك تبادل، وانتظمت التجارة بين الشعوب والبلدان (رحلة الشتاء والصيف)، وبحثا عن العلم جمع الحديث النبوي الشريف وزيارة الأماكن المقدسة- تارة أخرى، خاصة وأن ذلك من أركان الشريعة الإسلامية، فأتسع ميدان الرحلة باتساع رقعة العالم الإسلامي، وتنافس فيه التاريخ والأدب وفنون أخرى، وهذا كله جعل نص الرحلة مستعصيا على الانتساب النوعي، وانعكس على التسمية التي أصبحت متعذرة تارة، ومتعددة تارة أخرى (الرحلة، أدب الرحلة، الأدب الجغرافي...)، مما أسهم في ازدياد عدد الرحلات والاهتمام بها [12].

صحيح أن الرحلة في بعض أشكالها فن أدبي خالص أو أقرب إلى ذلك، له مميزاته وخصائصه واستقلاله، ولكن لا ينبغي أن يفهم من هذا القول، خلو كتب الرحلات من كل المعارف الجغرافية أو التاريخية أو فن من الفنون الأخرى، وعلى هذا النمط، تسير الرحلة فنا مختلطا لا يجمع شتاته سوى صاحب الرحلة[13].

وعليه، فإن الرحلة على مستوى المضامين، تحتوي على معارف متنوعة، تاريخية وجغرافية، دينية وأدبية وحتى إثنوغرافية، وعلى مستوى الأشكال نجد فيها السرد والوصف، الحكايات والأخبار، الرسائل والأشعار. إن هذه الطبيعة الغنية للرحلة جعلت دراستها تتجه اتجاهات مختلفة تبعا لاهتمام الدارس. وهكذا جعلها المؤرخ نصا تاريخيا فيه كثيرا من المعلومات المتصلة بالبلدان المُزارة، وجعلها الجغرافي مصدرا يستقي منه ما يورده الرحالة من معلومات جغرافية عن الأماكن التي مر بها، كما يجد فيها الباحث الاثنوغرافي كثيرا مما يود معرفته عن الشعوب التي تحدث عنها الرحالة، ويجد فيها الباحث في تاريخ الأفكار ما يود معرفته عن ثقافة الذات التي يحليها الرحالة بمقارنتها بثقافة الغير، ويجد فيها الدارس الأدبي أنماطا أسلوبية، وأنواعا أدبية أفرزتها ظروف اجتماعية وثقافية، عاش الرحالة في أحضانها[14].

الرحلة بين الأدب والتاريخ عند أبي راس الناصري: إن أدب الرحلات أو السفرنامة نوع من الآداب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، وما صادفه من أمور في أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان، وتعد كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، لأن الكاتب

يستقي الحقائق من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر، مما يجعل قراءتها غنية، وذات فائدة كبيرة. فأعمال ابن بطوطة وابن حوقل وماركو بولو وإرنست همنجواي ورفاعة الطهطاوي ونجيب محفوظ، وأبو راس الناصري محور دراستنا في هذا المقال، كلها خلاصات رؤى لوقائع تاريخية، وحقائق جغرافية في مرحلة زمنية معينة، وهناك من الرحلات من تعدّت ذلك إلى دراسة الثقافات الاجتماعية كاللغة، والعادات والتقاليد بعناية خاصة، كرحلة البيروني مثلا [15].

كما يشكل أدب الرحلة ثروة معرفية كبيرة، ومخزنا للقصص والظواهر والأفكار، فضلا عن كونه مادة سردية مشوّقة، تحتوي على الطريف والغريب والمدهش، مما التقطته عيون تتجوّل، وأنفس تنفعل بما ترى، ووعي يلمُ بالأشياء ويحلّلها، ويراقب الظواهر ويتفكر بها، ولذلك انصرف الرحالة العرب، ومنهم أبو راس الناصري إلى عيونهم بصور المعرفة، مدفوعين غالبا بشغف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة، لا في الاستكشاف فقط من باب الفضول المعرفي، وإنما أساسا من باب طلب العلم، واستلهام التجارب، واقتفاء أثر الأثر للخروج من حالة الشلل والجمود والتأخر، وهي ولا ريب نظرة أبي راس الناصري المتحسر على ماضيه، والتائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية العلمية الحضارية[16].

لقد تخصص وبرع المغاربة كثيراً في فن الرحلة، ولما كانت العلوم الدينية هي قطب الرحى في النشاط العلمي، ومدار البحث والدرس لارتباطها بالعقيدة الإسلامية، فإن الرحالة المغاربة كانوا ينتهزون فرصة أدائهم فريضة الحج، في التجول بين المراكز العلمية المختلفة، للقاء العلماء، والأخذ عنهم، وتسجيل أسماء مشايخهم وأسانيدهم ومروياتهم.

إذن، إذا كان من أهم الدوافع التي دفعت بالرحالة المغاربة على غرار ابن جبير وابن بطوطة والرعيني وابن جابر الوادي آشي والسبتي وابن رشيد والبلوي إلى الرحلة لأداء الفريضة وطلب العلم، والسير على أسس وخصائص الرحلة المغربية، وعلى طريقة الأندلسيين في تسجيل رحلاتهم، فإن من الدوافع الواضحة التي أدت بأبي راس الناصري إلى شد الرحال هي طلب العلم من منابعه الأصلية كمكة والمدينة، ولقاء العلماء والاستفادة منهم أولا، وأداء الفريضة ثانيا. وفي كلتا الحالتين تأصلت هذه الرحلات، وأصبحت فناً قائما بذاته، من حيث تدوينه بأسلوب مميز، في سفر يشمل تاريخ الخروج والوصول إلى كل مدينة، مع إعطاء لمحة وافية عنها، وقائمة بأسماء مراحل السفر، والعلماء المأخوذ عنهم[17].

ومن الأهمية بمكان، أن اذكر بعض المشايخ والعلماء الذين لقيهم أبو راس الناصري في رحلاته، سواء داخل الوطن أو خارجه، لأن هناك قرابة الخمسين شيخا وعالما دَرس عليهم، والتقى بهم، ممن أحصيناهم في كتاب رحلته "فتح الإله ومنته"، ولعل من العلماء الذين يعتز بلقائهم والأخذ عنهم الشيخ أحمد بن عمار الذي ينعته بأمجد النظار، الواسع الرواية والحسن الدراية، والشيخ محمد بن الحفاف فقيه وعالم وخطيب ومفتي الجزائر، والذين لقبوه بالحافظ. كما يعتز بلقاء علماء مدينة فاس، وفي مقدمتهم الشيخ الطيب بن كيران، حافظ العصر السيد والسند، الطائر صيته في الآفاق بالاتفاق، إلى أقاصي مصر والشام والعراق، وإلى مجالس غانا وفرغانة[18].

وهنا تلتقي نظرة أبو راس الناصري بنظرة ابن خلدون، الذي يؤكد على أن الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم؛ فيقول: "وإن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم، وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة. إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، فالرحلة لابد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد، والكمال للقاء المشايخ، ومباشرة الرجال"[19].

ومن نص ابن خلدون ندرك الأهمية التي كان يوليها المغاربة عامة والجزائريين خاصة للرحلة العلمية، حيث ضربوا أروع الأمثلة في طول الغياب، وتحمل الغربة عن أوطانهم من أجل العلم، ولجأوا الى تخفيف عبء الرحلة الفردية ومشاقها إلى الرحلة الجماعية، وكانت رحلاتهم تستغرق مددا طويلة يقضونها في البحث والدرس، وبعضهم كانت له أكثر من رحلة (قام أحمد المقري بثلاث رحلات، أبو راس برحلتين...) وهذا دليل على رغبتهم الشديدة في إثراء معرفتهم العلمية وهمتهم العالية[20].

وأود أن أشير إلى حقيقة تاريخية، وهي أنه إذا كان الرحالة الجزائريون قد أسهموا مساهمة كبيرة وواضحة في كتابة الرحلات، ولا سيما خلال القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، والذين تعمقت صلاتهم بالأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج، وتلقي العلم ولقاء العلماء، ووضع المؤلفات عن رحلاتهم تلك، إلا أنهم وبالقياس إلى كتّاب الرحلات المغاربة كانوا قليلي الإنتاج، ولعل ذلك راجع إلى أن عدداً من العلماء الذين رحلوا لم يعودوا إلى الجزائر ليدونوا ما كتبوا[21].

تبدو أهمية مؤلفات الرحالة في كونها تسد جانبا له شأنه في الدراسات الإنسانية والاجتماعية، خاصة وأن المصادر التاريخية التي وصلتنا، اتسمت بالزوايا السياسية والعسكرية والاقتصادية في المقام الأول، أما النواحي الحضارية الأخرى، فإنها لم تحظ إلا بالقليل من العناية. فالمؤلفات الرحلية تحتوي على إشارات قيّمة على الأصعدة الاجتماعية والثقافية والدينية من مظاهر حياتية متعددة ومختلفة، زد على ذلك أن أولئك الرحالة قدموا لنا رؤى مهمة، لزوايا ندِر أن تتردد في كتب الحوليات، ومنها على سبيل المثال لا الحصر اتفاق الرحالة الجزائريين الثلاث (أحمد المقري، حسين الورتلاني، محمد أبو راس الناصري) على ذكر بعض الصفات والعادات المذمومة التي لم تعجبهم أثناء تواجدهم بمصر وتونس كالغيرة والحسد، الكره والغش، الكذب والوشاية والسرقة، إذ تعرض أبو راس إلى سوء معاملة علماء مصر له حينما شكُوا في إجابته، في حين يذكرون صفات حميدة كالكرم وحسن الضيافة عند أهل الشام[22].

ومن جهة أخرى ومن الضرورة بمكان إثارة ناحية جديرة بالأهمية ألا وهي طبيعة ونوعية المصادر التي اعتمد عليها الرحالة المغاربة في تأليف رحلاتهم، ألا وهي المشاهدة والملاحظة، فإذا كان ابن جبير وفي إشاراته عن بلاد الشام مثلا، نجد رحلته تحوي كافة الجوانب المتعلقة والمتصلة بتلك البلاد، حتى نكاد نعتقد أنه لم يترك شيئا جديرا بأن يتناوله في رحلته ولم يذكره، فإن أبو راس الناصري كانت لديه قدرة فذة على معاينة كل ما تقع عليه عينيه، وإيراده خاصة ما يجده جديدا أو غير مألوف، وقد لاحظنا من خلال تتبعنا لمحطات رحلته، أن مقدار المشاهدة والملاحظة تتفوق بشكل واضح في رحلته، لا سيما عندما يطرح المسائل والقضايا التي ناقشها مع العلماء والمشايخ الذين لقيهم، فيقدم نصوصا للسابقين، ثم يختمها برؤيته الشخصية الخاصة به، ومن هنا كانت القيمة المتزايدة لرحلته.

وفي هذا المجال، نذكر أنه كان لا يتوانى في السؤال عما يعّز له من أمور تستعصى عليه في الفهم، كما يورد أحيانا بعض الإشارات لكتب قرأها، من ذلك ما يذكره في سياق حديثه عن ترخيص لبس الحرير، مستشهدا بما ذكره الشيخ أحمد بابا في كتابه " كفاية المحتاج لمعرفة ما ليس في الديباج"، كما يستشهد بكتاب "فصوص الحكم" لمحي الدين الأندلسي في مسألة زواج الأنبياء صلوات الله عليهم من الحور العين[23].

وإذا ما حاولنا تحليل نصوص رحلته لاستخلاص دلالاتها النفسية، نجد أنه يعكس لنا بصورة جلية كافة انفعالاته وانتماءاته الإسلامية والعربية والجزائرية كرجل مسلم عربي عندما يقف موقف

شيخه عبد الله الشرقاوي من الحملة الفرنسية على مصر، حيث يتغير النص إلى مشاعر مضطربة عندما يستشعر مدى السيطرة والإهانة التي لحقت بالمصريين لما ألزم الفرنسيون المسلمين بدفع المحبوب (نوع من الضرائب تدفع نقدا)، فيصف نابليون بونابرت بالطاغية والفرنسيين بالكفرة، وأعمالهم بالحقيرة والذليلة، وكوطني جزائري، حينما سمع بخبر فتح وهران، وهو بتونس قافلا من رحلته الثانية، فعجل العودة إلى أرض الوطن للاشتراك في الجهاد ضد الأسبان، حيث اعتبر فتحها حدثا هاما عوض المسلمين خسارة الأندلس، وقد ساعده على ذلك التوضيح أنه لا يوجز عباراته بل إنه يفصلها، ويقدم تصوراته العقلية وأحاسيسه النفسية الصادقة[24].

ومن بين المصادر التي اعتمد عليها أيضا تآليف الرحالة السابقين، وفي ذلك يقول: "وأسوتي في ذلك رحلة الجهابذة النحارير، والأسانيد الجماهير"، مطلعا عليها مثله مثل الورتلاني، فكان اعتمادهما على "الرحلة الناصرية" لأحمد الدرعي، و"ماء الموائد" لأبي سالم العياشي، بالإضافة إلى المصادر الجغرافية المتعددة التي يمكن أن يقيد بها، كما لا يمكن أن نغفل في هذا المجال حقيقة محورية تتمثل في الثقافة الموسوعية لأبي راس، وتمتعه بقوة القدرة على الوصف الحي المتدفق، جعلته يحسن الإفادة من كافة تلك المصادر[25].

إن رحلة أبي راس الناصري هي تسجيل لرحلتين قام بهما تفصل بينهما مدة عشرين سنة، كتبها في شكل مذكرات، عني فيها بإسهاب بتدوين كل الجوانب، العلماء الذين اتصل بهم في البلدان التي زارها، والدروس التي حضرها، والشيوخ الذين استجازهم، وما سمع من أحاديث، وما رَوي من الأشعار. وعموما يمكن إدراج رحلة أبي راس الناصري ضمن الرحلات المغاربية التي اتخذت طابعا فهرسيا، وهي الرحلات التي استخدمها الأندلسيون والمغاربة على السواء للتعبير عن الكتب التي جمعت أسماء العلماء والأسانيد والمرويات والقراءات على الشيوخ، والمصنفات المجازة ونحو ذلك[26].

من بين مؤلفات أبي راس الناصري كتابه الذي ضمنه رحلته، والمسمى بـــ"فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، وهو عبارة عن سيرة ذاتية وعلمية لحياته، وصفها محمد بويجرة بـــ"النص الذي تجسدت فيه صورة معاناة كاملة، وتبلورت في مضامينه جملة القضايا التي تشكل همّا وجوديا، وآمال مكبوتة كان الشيخ أبي راس يبغي تحقيقها على أرض الواقع"[27].

كما أن رغبة التفوق والتجاوز التي لعبت دوراً أساسياً في دفع حياة أبي راس نحو الاعتلاء والتعلّم، جعلته يشدّ الرّحال إلى كل مكان يعرف أن به عالما يمكنه أن يأخذ عنه شيئا ذا فائدة،

كما كانت لقاءاته دائما مع العلماء غنية بالاستفسارات والنقاش والحوار، وكان أبو راس دائما هو صاحب الرأي الصحيح، وهو الذي يقنع محاوريه[28].

بينما يذكر محمد غالم أن كتاب الرحلة لأبي راس عبارة عن سيرة ذاتية في الثقافة العربية التقليدية، بعناصر وموضوعات متصلة بالنسب العائلي، حينما يفرد الباب الأول من كتابه للحديث عن عائلته، ومتصلة بالنسب العلمي، بينما يخصص الأبواب المتبقية من كتابه لذكر أشياخه ولقائه بالعلماء، وما جرى له معهم من المراجعة والكلام، والذين يصفهم بـــ"أعلام أجلة وعلماء ملة"، بالإضافة إلى الأسئلة وما يتعلق بها[29].

إن كتاب الرحلة لأبي راس الناصري "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" والذي احتوى على خمسة أبواب، يعتبر فن من فنون السير التي حددت سيرته الذاتية الحياتية والعلمية، وذلك بتسجيل كل ما أثر في تكوينه العقلي وتطوره الفكري، والأدب العربي قديما كان أو حديثا يحفل بالكثير من هذا النوع كالبيروني والسيوطي مثلا.

إن أبا راس كانت له رغبة شديدة في اتخاذ موقف ذاتي من الحياة التي عايشها، وهي في الحقيقة محاولة للتخفيف من الانفعال، والثورة النفسية على بيئته ومجتمعه، وصور صراعه ذات التأثير القوي والإيجابية، وأن كتابة رحلته لهي الصورة الصادقة الحية للتجربة التي تلمس مظاهرها المختلفة في سيرته، فهي واضحة في الفهم النفسي والاجتماعي للفترة التي عاشها[30].

إن كتاب أبي راس الناصري مقسم إلى خمسة أبواب كما أسلفنا الذكر، تحدث في الباب الأول عن نسبه الشريف الذي يعتز به كثيراً، حيث يذكر والداه وأجداده وأفراد عائلته بالوقار والاحترام والتقدير والاعتزاز، فعن والده مثلا يقول:"كان من القراء الماهرين والأساتذة المشهورين، ومن أهل الحزم في القرآن والجّد، ساعي في مساعي الأدب والجِد. وأما تقاه وصلاحه فمشهور. وأمي مثله في الصلاح وأكثر"، إلى أن يقول:"هذا ما بلغنا عن بعض أسلافنا ولله الحمد، وما بقي أكثر وأبهر وأزهر وأظهر وأشهر، وأن البدر دائم الإنارة والإضاءة، وخزائن الله لا لها انقضاء"[31].

إن اعتناء أبي راس بنسبه عناية فائقة ودقيقة لاعتبارات يذكرها، ومنها ما أشار إليها بقوله: "بقاء الأنساب محفوظة، وصفاتها على صفة أبائها، لكن لاختلاط النطف، تبدلت الأنساب، وتبدل حلي الألوان في كل أوان ومكان"[32]. وقد لاحظنا أن ادعاء الشرف في ذلك العهد قد شاع، حتى أننا لا نقرأ لعالم أو صالح قد اشتهر إلا واسمه مقرون بالشريف، وما زال الناس إلى يومنا هذا يدعون الانتساب إلى البيت الشريف.

أما الباب الثاني فيخصصه لذكر شيوخه الذين التقى بهم، تناظر معهم في فروع من المعرفة، وأجاب عن مسائلهم التي واجهوه بها، مواجهة امتحان تارة، واستفتاء واستفسار تارة أخرى، فأجيز وأجاز، فقد رثى كبارهم، ونوه بعلمهم وخصالهم، وهو القائل: "وأبو راس واحد من الذين يفتخرون بكثرة شيوخه"(33).

الباب الثالث يخصصه لرحلته للمشرق والمغرب وداخل الوطن الجزائري، ولقاء العلماء وما جرى له معهم من المراجعة والكلام، أسوته في ذلك رحلة الإمام ابن رشيد السّبتي والخطيب ابن مرزوق. أما الباب الرابع فيتناول فيه المناظرات التي أجراها مع من لقيهم من العلماء حول المسائل العلمية والقضايا الدينية. وهنا أسجل وقفة عند هاذين البابين (الثالث والرابع)، فإذا كانت معاجم اللغة تجمع على أن الرحلة هي انتقال من مكان لآخر، فإن هذا المعنى لا يهمنا، (لأنه ليس كل من ارتحل قد دوّن رحلته)، إلا بالقدر الذي يتأسس عليه المعنى الثاني، وهو كتابة الرحلة التي يحكي فيها الرحالة أحداث رحلته، وما شاهده وعايشه من أحداث. وهذا المعنى من الرحلات يتطلب مستوى من العلم والفكر، يؤهله لنقل أحداث سفره إلى كتابة، وهو ما يسمى بخطاب الرحلة، ويعرّف بعملية تلفيظ لفعل الرحلة، الشيء الذي يتطابق مع رحلة أبي راس تمام المطابقة(34).

ولمزيد من التوضيح، فإن كتب الرحلات تختلف عن الكتب التاريخية التي تعنى بالحقائق فقط، وتحاول تقديم صورة موضوعية مجردة من الميول الذاتية، كما أن الفرق بين المؤرخ والرحالة، أن الأول يستقي معلوماته من الكتب والوثائق والمستندات، بينما يستقيها الرحالة من الترحال والتأمل، والمشاهدة والاستماع، وعلى الإدراك المباشر للأحداث. إذن تعد الرحلات من أهم مصادر كتابة التاريخ، فهي شهادة حية للوقائع التاريخية(35).

هذا وتجدر الإشارة إلى أن كتابة هذه الرحلة كانت في أخريات حياته، أي بعد سنة 1233هـ/1817مـ كما يذكر ذلك أبو القاسم سعد الله في كتابة تصدير الرحلة، ولكن الأكيد بعد سنة 1227هـ/1812مـ، وهي الإشارات التي يذكرها في العديد من المرات في مخطوطه "زهر الشماريخ في علم التاريخ" عندما يتطرق إلى رحلته إلى القدس(36).

رحلة أبو راس الناصري مشرقا ومغربا: إن الوقوف على رحلة أبي راس الناصري تدفعنا إلى معرفة بعض الخصائص والمميزات التي تميزت بها، ومنها أن الراوي في الرحلة هو المؤلف ذاته، وهذه هي إحدى خصائص الكتابة الرحلية عامة، وعند أبي راس بصفة خاصة، وفي هذه الحال يكون الراوي حاكيا وموضوعاً للحكي. فهو يكون حاكيا عندما يصف، ويكون موضوعا للحكي

عندما يسرد، وبهذا يقدم الراوي (الرحالة) معرفة موضوعية أثناء الوصف، كما يقدم تجربة ذاتية أثناء السرد[37].

أما الخاصية الثانية فهي نوع الرحلة، فرحلة أبي راس الناصري علمية وأهدافها دينية، فبقدر ما كان حريصا على أداء مناسك الحج، كان حريصا أكثر على لقاء العلماء والأخذ عنهم، وقد سجل ذلك بأوضح صورة تكاد تنطق بما كانت عليه مدن المشرق العربي من نشاط علمي، ولا عجب في ذلك، فرحلات كل من ابن رشيد السبتي المغربي (658-721هـ) والرعيني الإشبيلي الأندلسي (592-666هـ)كانت لأداء مناسك الحج ولقاء العلماء، تكاد تخلو من الوصف الجغرافي إلا نادراً، والتطرق للأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية[38].

من الطبيعي أن تنفرد كل رحلة بخصائص تميزها عن غيرها، ومنها التحديد الزماني والمكاني، حيث اهتم معظم الرحالة بتحديد تواريخ الأحداث، وأوقات السفر بالسنوات والشهور، بل بالأيام والساعات بدقة تامة عند البعض، فابن جبير الأندلسي مثلا أرخ بالتاريخ الهجري والميلادي، وبأسماء أيام الأسبوع والأشهر العربية والإفرنجية على شاكلة طريقة المذكرات الشخصية، ومما جاء في مقدمة رحلته يوضح ذلك: "وكان انفصال أحمد بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطة حرسها الله للنية الحجازية المباركة شرفها الله بالتسيير والتسهيل وتعريف الصنع الجميل أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة وبموافقة اليوم الثالث لشهر فبراير الأعجمي.....ـــ"[39]، ومنهم من اكتفى بالتاريخ الهجري فقط كالمقري في رحلته إلى المغرب والمشرق، بينما لا يعتمد أبو راس التاريخ في رحلته إلا نادرا.

لم يكتف الرحالة المغاربة بالتحديد الزماني فقط، بل اهتموا بالتحديد المكاني، والمتمثل في تحديد مواقع البلاد التي يمرون بها والمسافات بينها، والمراحل التي قطعوها في رحلاتهم، وتصوير حياة القبائل التي يعبرون أراضيها، وهي السمة البارزة في رحلة أبي راس الناصري، حيث يذكر جميع المناطق والأماكن والمدن التي دخلها، باستعمال مفردات منها دخلت في قوله: "ولما دخلت قسمطينة"، ورحلت في قوله: "ورحلت إلى مدينة فاس"، وذهبت في قوله: "ثم ذهبت إلى تونس"، وهذا ما يجعل القارئ يدرك أن الأدب والجغرافيا اجتمعا سويا بتوافق فذ في تأليف أبي راس المتمكن من أدوات الرحلة بجدارة[40].

زار أبو راس العديد من الدول العربية، والتقى بعلمائها، فأُجيز وأَجاز، وتناظر معهم في فروع من المعرفة، وأجاب عن مسائلهم التي واجهوه بها مواجهة اختيار وامتحان تارة، واستفتاء

واستفسار تارة أخرى، كما هو مفصل في رحلته "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، ويشير لذلك أيضا في كتابه "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" الذي عرض فيه رحلاته إلى دول المغرب والمشرق العربيين ولقاءه بالعلماء(41).

ولكنني قبل الحديث عن هذه الرحلات التي قادته إلى المغرب الأقصى وتونس مغرباً، والى مصر والحجاز والشام مشرقاً، أشير إلى أنه تنقل كثيراً داخل الوطن الجزائري، حيث زار مدينة وهران وتلمسان والبليدة وقسنطينة، وخاصة الجزائر العاصمة التي تردد عليها كثيراً، والتقى بعلمائها مراراً، ومنهم الشيخ أحمد بن عمار صاحب الرحلة المعروفة بـــ"نحلة اللبيب"، والذي يقول في حقه: "وإني أتمثل في حقه بما يقتضيه الأعز مقامه، بإنشاء عجيب، قرير عطير، يستوقر الحليم عن وقاره، ويستوقف الطير في الهواء، ورزق بنيه في منقاره، وتذهل المجتاز ولوعلا أوفاز"(42)، كما التقى بالشيخ محمد بن الحفاف مفتي الجزائر وخطيبها، والمفتي علي بن عبد القادر المعروف بابن الأمين، ومحمد بن جعدون قاضي مدينة الجزائر وشيخ جماعتها، وكلهم اعترفوا له بفضل العلم، وغزارة الإطلاع والحفظ، فلقبوه بالحافظ(43).

للعلم أن أول رحلة يذكرها وهو شاب رحلته إلى مدينة مازونة، ومعناها الحديث عن مدرستها الفقهية التي اشتهرت في تلك الفترة، وحظي التعليم بها بالاحترام والتقدير، وكان إذا أراد الناس أن يفاخروا بطالب علم، قالوا عنه درس بمازونة، حتى لقبت بقبلة الفقهاء وبمدينة العلماء(44). وبمازونة حفظ أبو راس مختصر خليل وفهمه معنى ولفظا بعد ثلاث سنوات قضاها فيها، صار لا يشق له في فهم المختصر غبار، وطار صيته بذلك في كثير من الجهات، وهو الذي قال عن ذلك: "لما انصرفت من مازونة، وقدمت إلى معسكر ما معي شيء من المال ولا غيره سوى معرفة الفقه وحده"، وفي ذلك أقول ما قاله ابن سيد الناس وهو يدافع عن الواقدي: "سعة العلم مظنة لكثرة الإغراب، وكثرة الإغراب مظنة للتهمة"، والواقدي كما هو حال الناصري غير مدفوع عن سعة العلم، فكثرت غرائبه(45).

لم يكتفي أبو راس بعلماء الجزائر، ولا بدراسة الفقه المالكي، بل رحل إلى الحواضر الكبرى التي كانت تمثل مراكز إشعاع علمي وثقافي، ومنها مدينة فاس التي يصفها بمحل العلم والإيناس، والتقريب والتبعيد لأناس، وهي قبة الإسلام والسلم والاستلام، فهي أم قرى المغرب الوافرة، وخزائن المزائر والشهرة الساحرة(46)، كما يصور لقاءاته مع العلماء الذين لقيهم، ومناظراته لهم في عديد القضايا الدينية والمسائل الفقهية، ومنهم الشيخ الطيب بن كيران في قول "صحّة" للشارب،

هذا الأدب سنة لا بدعة عامية بل وحكمية على حد قول أبي راس بإجماع العلماء والفقهاء، وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم: "حبّب إليّ من دنياكم ثلاث، النساء والطيب، وجعلت قرتي في الصلاة" الذي حمله على ظاهره.كما يذكر أبو راس أنه تكلم مع أديب فاس وعالمها وعاملها الشيخ حمدون في مجلس تناشد أشعاراً، وتراجع مراراً، ولقي الشيخ عبد القادر بن شقرون نحوي فاس باتفاق الناس، الذي كتب إلى علماء تازة لما علِم أنهم قصروا مع أبي راس قوله: "كيف بكم لم تكرموا هذا الحافظ الذي له الشهرة التامة بالمغرب والمشرق؟"[47].

والجدير بالذكر أن تنقلات أبي راس الناصري إلى المغرب الأقصى كانت متنفساً له لعدد من الكربات، فبعد عزله من القضاء سنة 1211هـ/1797م بمدينة معسكر، وفد على السلطان المغربي مولاي سليمان، وأهدى له شرحه الكبير على قصيدة العقيقة للمنداسي، فأكرم وفادته، وقد رغّبه السلطان في البقاء والإقامة فأعتذر له، لكنه أجبر على الإقامة بتطوان مدة من الزمن، ألف بها كتابه "روضة السلوان بمرسى تطوان".

عاد إلى الوطن، ولم يكد يطمئن حتى وقعت حروب درقاوة، ورغم أنه ينعتها بالفتنة، إلا أنه اتُّهِم بالضلوع في مساندتها ومباركتها، فعانى أبو راس النكبات ما ظهر على نفسه وعلى صحته، فاعتزل الناس وترك الكتب والتأليف، وضاق بالناس، حتى قال فيهم: "الناس داء عضال، لا يتخلص منهم على كل حال، سهامهم مسمومة، وخلق أكثرهم مذمومة، لا ينظرون بعين الإنصاف، ولا يملون من الانتقاد والخلاف، يسقون من أفواههم العسل، وفي قلوبهم السم الزعاف"[48].

فتاقت نفسه إلى الحج مرة ثانية، لعله يتنفس من الضيق الذي عاناه سنوات، وكأني بأبي راس يسير على خطى سلفه الرحالة حسين الورتلاني حينما عزم على أداء فريضة الحج قائلا: "الحمد لله الذي جعل الرحلة لبيته الحرام من قواعد الإسلام، وأمر بالحفر في البرور والبحور"[49]. وعليه فهي الحجة الثانية التي سترسم الرحلة الثانية بعد عشرين سنة تفصل بينها وبين حجته الأولى التي حدثت سنة 1205هـ/1791م، وقد قضى هذه المدة بعيدا عن الاتصال بعلماء المشرق، وقعت فيها وقائع كبيرة وكثيرة، منها الحملة الفرنسية على مصر عام 1195هـ/ 1798م.

وفي تونس، وهي المحطة الأولى في طريقه إلى المشرق العربي، يذكرها باسم أم البلاد ومثوى الطارق والتلاد، أهلها في القديم بهذا الإقليم كان العمل، والكرسي الذي بعصاه ترعى الهمل، حيث نزل على علمائها وأجلّة فقهائها بجامعها الأعظم، وفي ذلك يقول: "فتذاكرنا وتناظرنا

وترافعنا وتشاجرنا، وتقابضنا في جميع الفنون الدقيقة والمسائل المخفية، وقد أظهرني الله عليهم في ذلك كله، ومنهم الشيخ المفتي محمد بن قاسم المحجوب الذي درس عليه فقه النوازل، والشيخ محمد بيرم مفتي الحنفية، قرأ عليه فقه أبي حنيفة بمختصر الكتر، قال عنه أبو راس الناصري: "إنه إمام في الآداب والبيان والإعراب واللغة والأنساب والفرائض والحساب"(50).

وانطلاقا من هذه الفكرة، يمكننا معرفة المبررات التي جعلت أبي راس متمسكا بالحوار والنقاش، ومدفوعاً إلى مجالسة العلماء، وكأنه يبحث عن محور روحي يستقطب الذّات ويشغلها، ويكشف لها عن بعد آخر في رؤيا العالم، وبحث عن أساليب ذاتية لتثبيت وجوده حواريا وجدليا(51).

ولما كان أبو راس أصيلا في مرجعيته ودسما في تجربته الأولى (رحلته الأولى)، ظمئا إلى ينابيع العلم والمعرفة، وأراد إثراء حمولته الخبراتية مع تجارب وخبرات المعاصرين له، والتي كان قد عاشها في رحلته الأولى منذ عشرين سنة، فركب البحر من تونس باتجاه مصر، البلد الذي ليس لعمر ولا لزيد، والتي يقول عنها: بأنها ذات العمارة الهامية كأمواج البحور الطامية، وذات العلوم الزاهرة بـــالأزهر، والعساكر القاهرة بالقلعة والمزهر والفسطاط، ومشهد الإمام، وجامع ابن طولون، والأهرام، والحسنين الشرفاء الحنفاء، والملوك والخلفاء، لقي بها العلماء الكبار، أهل العلم والأدب، ومنهم الشيخ أبو الفيض مرتضى الزبيدي، والشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ جامع الأزهر الذي قاد المقاومة أثناء الحملة الفرنسية على مصر عام 1212هـــ/1798مـــ، والشيخ عثمان الحنبلي وكلهم أجازوه، وصنفوه في إجازته بالحافظ تارة وبشيخ الإسلام تارة أخرى، بعدما علموا أن العلم بين سحره ونحره، فارتفع ذكره وازداد فخره(52).

إن هذه الصورة (لقاءه بعلماء مصر) لهي نفسها تقريبا الصورة الآنفة الذكر التي ذكرها بتونس، التي تبرز المنحى النفسي الذي كان يمر عبره أبو راس الناصري، والتوهج الروحي حول رغبة التجاوز، وفرض الذات بالقدرات العلمية، وذلك أنه كلما اجتمع بعلماء في مناظرات علمية، كلما كان دائما ينتصر ويعلو شأنه، ويعترفوا له. وهنا تتداخل التاريخانية بالتاريخ عند أبي راس الناصري، فالتاريخانية تؤمن بأن التاريخ هو العامل المؤثر في أحوال البشر، وتروم رؤية واقعية، تبلورها ممارسة تمثل الماضي، بهدف التحرر التدريجي للإنسان عن طريق جدل ثقافي ومناظرة علمية. هذه الأبعاد لا يستوعبها إلا الفكر التاريخي. على هذه الأرضية تضع التاريخانية الإنسان

(أبي راس الناصري) في قلب العملية التاريخية، إذ تستحضر الماضي بشكل مستمر، لتستمد منه مقولات جاهزة، ليس للذكرى لكن لإحيائها وتحقيق تغيير بواسطتها[53].

انتقل أبور راس إلى مدن فلسطين كالرملة وغزة والعريش والقدس التي زار فيها ضريح سيدنا داوود عليه السلام، والذي يصفه بالمشهد العظيم، في غاية كثافة البنيان، في طول يكاد يقص الجو، كما يصف لنا صخرة القبة بقوله: "ربوة من حجر لونها يقرب من لون الجاوي، في غاية الكبر والضخامة... ورأيت بها أجناس النصارى، مقبلين على العبادة، أحبارا ورهباناً وقسيسين، رجالا ونساء، يأتون إليها من سائر الأقطار، بالليل والنهار، معهم هدايا لا توصف أنواعها، ولا ينقطعون أبداً ما دنا وما قصا"[54].

وعليه، فإن الرحلات تعد من أهم مصادر كتابة التاريخ، تلتقي فيها الرؤى التاريخية والجغرافية والأدبية، ومعنى ذلك، لا يعتبر هو كل من ألف كتابا احتوى عنوانه على تعبير "الرحلة"، بل الذي احتوت مؤلفاته على جوانب حضارية متعددة، يعكس ارتحاله إلى تلك المنطقة مكان الدراسة. ولذا فإن رحلة أبي راس الناصري إلى المشرق العربي ومغربه، تعد ظاهرة تاريخية وأدبية لها أهميتها، خاصة إذا علمنا أن الرحلات المدونة تزداد أهميتها بمرور الزمن. ولا شك أن المتمعن في كتب الرحلات، يجد أن هؤلاء الرحالة يتفاوتون في درجة ملاحظاتهم واهتماماتهم المتعددة، الثقافية العلمية والاجتماعية والسياسية.

الخاتمة: اتجهت طبيعة الكتابة في الرحلة اتجاهات مختلفة تبعا لاهتمام الدارس، وهكذا جعلها المؤرخ نصاً تاريخيا يمتح منه كثيراً من المعلومات المتصلة بالبلدان المزُورة، وجعلها الجغرافي مصدراً يستقي منه ما يورده الرحالة من معلومات جغرافية عن الأماكن التي مر بها، كما يجد فيها الباحث الإثنوغرافي كثيراً مما يود معرفته عن الشعوب التي تحدث عنها الرحالة، ويجد فيها الأدبي أنماطا أسلوبية، وأنواعا أدبية أفرزتها ظروف اجتماعية وثقافية عاش الرحالة في أحضانها، كما وجدنا نحن في رحلة الناصري مبتغانا من المعلومات والمعارف التي تزخر بها مما أردنا معرفته من ثقافة الذات لأبي راس الناصري ومقارنتها بثقافة الغير من بعض الرحالة سواء ممن سبقوه أو ممن عاصروه.

لا شك أن الرحالة المغاربة كما كانت اهتماماتهم وملاحظاتهم مختلفة، كانت أدواتهم ومناهجهم المعرفية، وحظوظهم من مختلف العلوم متباينة أيضا، مما أضفى على رحلاتهم قيمة علمية وأخرى أدبية. فالقيمة العلمية لرحلة أبي راس تتمثل في كونه لما حفظ القرآن الكريم وأخذ نصيباً من علم الفقه والدراية، حرص على لقاء الشيوخ والتردد على حلقات العلم، خاصة شيخه عبد

القدر المشرفي، الذي أعجب بذكائه وحفظه، فاستفاد منه كثيرا ،ولازمه طويلا، وحينئذ تاقت نفسه لشد الرحال إلى المشرق العربي بنية الحج الديني والسفر العلمي، فجلس إلى العلماء والفقهاء، يدوِن ما يسمعه، ويسجل ما يراه من ما يهم المؤرخ والجغرافي والأديب.

ففي رحلته سِجل لمختلف المعارف المتداخلة والمتشابكة الأفكار، ولنا أن نذكر أمثلة على ذلك "الفوقية، العرش المجيد، الذات..."، كما نجد في هذه الرحلة معلومات دقيقة عن أسماء لبعض العلماء والفقهاء، والخطباء المغاربة، الذين رحلوا إلى المشرق العربي، وتولوا مناصب "الفقهاء- الخطباء- المفتين" كالشيخ عبد الرحمن التادلي المغربي.

أما القيمة الأدبية في الرحلة الناصرية، فتتمثل فيما في موادها من أساليب ترتفع بها إلى الكتابة الأدبية، وترقى إلى عالم الخيال الفني، وهذا ما تألق فيه الرحالة المغاربة في كتابة رحلاتهم، وتفوقوا فيه على إخوانهم المشارقة كما وكيفا، على نحو ما نجد في العشرات من الرحلات المغربية والأندلسية، فيها المقتضب، وفيها المسهب، وفيها المنثور والمنظوم، والفصيح والعامي، حتى أن كراتشوفسكي كان على حق عندما لاحظ أن المغاربة أحرزوا درجة السبق في أدب الرحلات[55].

الهوامش:

1-ابن عبد الصادق، مشاهدات سفير مغربي بإسبانيا في القرن الثامن عشر، مطبعة الرسالة، منشورات مجلة البحث العلمي، الرباط، 1964، ع02، ص.164

2-كراتشوفسكي يوليانوفتش، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية: صلاح الدين عثمان هاشم، القسم الثاني، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، مصر، ص768.

3- أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق وضبط وتعليق: محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص91.----4-أبو راس الناصري، زهر الشماريخ في علم التاريخ، مخطوط تحت ملكنا، ص:.151

5- عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، ط4، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 2005، ص:.359

6- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2012، ص:.31

7- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (ق10هـ/16مـ)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ج1، ص: .407

8-ابن منظور، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، لبنان، 1994، ج11، ص274.--- 9- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مطبعة البابي الحلبي، مصر، (د ت)، ج3، ص:394.---10- نواب عواطف، الرحلات المغربية والأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة السعودية، 1997، ص:40-41.----11- ابن منظور، المرجع السابق.--- 12- زيادة نقولا، الجغرافية والرحلات عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، لبنان، ط3، 1982، ص15.

13-منصور الحازمي، رحلات الغرب في جزيرة العرب، مجلة الدارة، العدد3، السنة الخامسة، ربيع الآخر1400هـ/مارس1980مـ، ص:30.

14- عبد الفتاح كيليطو، المقامات، السرد والأنساق الثقافية، ترجمة: عبد الكبير الشرقاو ي،ط1، دار توبقال، المغرب الأقصى، 1993، ص:.127

15-محمد القاسمي، الرحلة وأدابها في اللغة العربية-دراسة تاريخية-مجلة الداعي، الصادرة عن دار العلوم، ديوبند، جمادى الثانية، رجب 1434هـ/أفريل، يونيو 2013مـ، ع: 6- 7، ص: 37.---16-أحمد بن الناصر الدرعي، الرحلة الناصرية-1707-1710، تحقيق: عبد الحفيظ ملوكي، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية،2011، ص10.

17- عواطف محمد يوسف، الرحلات المغربية والأندلسية، -دراسة تحليلية مقارنة- مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة السعودية، 1996، ص: .73

18- أبو راس الناصري، فتح الإله...المصدر السابق، ص103.---19- ابن خلدون، المقدمة، طبعة دار المصحف، لبنان، ص:406-407.
20- يوسف بن ياسين، علم التاريخ في الأندلس حتى نهاية القرن الرابع الهجري (ق10مــ)، ط1، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية للنشر والتوزيع، الأردن، 2002، ص:29-40.----21-أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: .430
22- أبو راس الناصري، فتح الإله...المصدر السابق، ص:115-116.---23-نفسه، ص:99.
24- محمد مؤنس أحمد عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 1995، ص: 13.----25-نفسه.---- 26- هناك نوع من الرحلات الأندلسية إلى الجزيرة العربية يسمى بالرحلات الفهرسية أو البرامجية، وكلمتي"فهرسة وبرنامج" من الألفاظ الفارسية المعربة، وهي كلمات مرادفة لــ"المعجم-الثبت-المشيخة" في المشرق الإسلامي. ينظر: خالد البكر، الرحلة الأندلسية إلى الجزيرة العربية، جامعة الملك سعود، المملكة السعودية، 2003، ص:22-.24
27-محمد بشير بويجرة، التسامي والعبقرية عند أبي راس الناصري، قراءة في فتح الإله وفق المنهج النفسي، مجلة قراءات، منشورات المركز الجامعي بمعسكر، 2008، ع:01، ص110.----28-نفسه، ص:.111
29-أبو راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تحقيق وتقديم: محمد غالم، منشورات المركز الوطني للبحث في الانتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، 2005، ص:17.----30-إحسان عباس، كتاب في السيرة، ط5، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، 1996، ص:.83
31- أبو راس الناصري، فتح الإله...المصدر السابق، ص29.----32- أبو راس الناصري، زهر الشماريخ...المصدر السابق، ص:.222
33- أبو راس الناصري، فتح الإله...المصدر السابق، ص:42.----34- محمد حاتمي، خطاب الرحلة المغرب ومكوناته البنيوية، مجلة علامات في النقد الأدبي، منشورات النادي الأدبي، المملكة السعودية، 1993، مج3، ج9، ص:165-171.
35-الجوهر بنت عبد الرحمن، الرحلات العربية مصدر من مصادر تاريخ المملكة العربية السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2010، ص:15.
36- أبو راس الناصري، زهرا الشماريخ...المصدر السابق، ص:104.----37- عبد الفتاح كيليكو، المرجع السابق، ص:.33
38- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، الكويت، 2012، ص:.31
39- محمد بن جبير، ابن جبير الأندلسي"اعتبار الناسك في ذكر الآثار والمناسك"، تقديم: إبراهيم شمس الذين، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان، 2003، ص: من المقدمة.---- 40- أبو راس الناصري، فتح الإله...المصدر السابق، ص:.108
41- أبو راس الناصري، عجائب الأسفار...المصدر السابق، ص:02.--- 42-أبو راس الناصري، فتح الإله...المصدر السابق، ص:48.
43-نفسه، ص:95.----44-مولاي بلحميسي، مازونة مقصد الدارسين وقلعة الخليليين، منشورات المجلس العلمي، الجزائر، 2005، ص:24.
45-ابن سيد الناس، عيون الأثر في معرفة المغازي والسير، ط1، دار التراث، المملكة السعودية، 1992، ج1، ص:59.
46-أبو راس الناصري، فتح الإله...المصدر السابق، ص:101.---- 47-نفسه، ص:.101
48-أبو راس الناصري، الدرة الأنيقة في شرح العقيقة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم3336/1.
49-حسين الورتلاني، الرحلة الورتلانية، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2008، مج1، ص:27.
50-أبو راس الناصري، فتح الإله...المصدر السابق، ص:52.---- 51-محمد بشير بويجرة، المرجع السابق، ص:108.
52-أبو راس الناصري، فتح الإله...المصدر السابق، ص:117.---- 53-ج.هرنشو، علم التاريخ، ترجمة: عبد الحميد العبادي، ط1، دار الحداثة للطباعة والنشر، لبنان، 1988، ص:66.---- 54-أبو راس الناصري، فتح الإله...المصدر السابق، ص:.119
55- عبد الفتاح كيليطو، المقامات- السرد والأنساق الثقافية، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، ط1، دار طوبقال، الدار البيضاء، 1993، ص127.

***Abstract** : the parent's and grandparent's patrimony as a reference among the references of history constitutes a pride of the arabo-islamic nations for their origins, their traditions and national identity, this world be through the gathering of all the sources and references related to the Algerian patrimony and the Arabs world at the same time.*

If we exposed the history of the scientific and cultural movement of printing and editing the writer Algerian patrimony in the Machreq and the Maghreb libraries, we would find that our cultural enterprises, at than support the migrating scientists all along the Arabs territory, participated of a great bulk in the working of this patrimony and its edition, particularly in the modern age(10-12H/16-18M), a big great patrimonial library had been constructed, of which, for instance, the calls literature and the geographic literature.

As far as the avails geographic literature are concerned we must focus on the migrations literature which nourished them in all their series, such new born, we believe was not focused upon at anytime, though its valuable richness and advantages for the scholars of patrimony civilizational history and social history and even political for Algeria.

Migrations never stop an eternal flow, the machreq has been subjected to numerous visits from the Greeks, and the reality of the machreq and its real face, besides the Europeans migrants, has been completed by the Maghreb's nuistants in the modern age, due to the many

of those migrants to the machrek, and varied in terms of period and subject, and most of it was of personal finance and will, contrary to the Europeans which had been financed by their states for informational and discoveries aims.

It is clear that migrations constitute of the most important references and sources for the script of history, because they are based on the direct know ledge of events, that's what makes them a vivid witness of the historical events for its value. The Algerians' migrations to Arabs machreq are looked at as historical and literary phenomena.
Undoubtedly the close observer to the migrants' books and writings finds that the migrants differ in their observation and concerns that's what makes the migrations possess different facets of concern; intellectual scientific, social and political.